الإعجاز البلاغي في قصة صالح عليه السلام

كفايت الله همداني*

الحمد لله الذي أعجز أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة بالقرآن، وتحدى به أساتيذ البراعة والبيان، أن يأتوا بسورة من مثله على مر الدهور والأزمان، فأرغمت طُلاوته أنفة المتكبرين، وسجدت لحلاوته جباه المنكرين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وبعد ...

فإن قضية الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ما تزال محط أنظار الدارسين، ومحور اهتمام الباحثين، منذ فجر الرسالة حين سمع حذّاق اللغة وأفذاذها ما أسر قلوبهم وعقولهم من آيات الذكر الحكيم، فاستشعروه بفطرتهم اللغوية، وقرائحهم النديّة، وتأملوه بوجداهم، وصفاء أذهاهم، وأيقنوا حق اليقين أنه كلام فوق كلامهم، ومرتبة من البلاغة والبيان تعجز عنها طاقاتهم، فانقادوا لعظمته، وخضعت نفوسهم ومشاعرهم لوطأته، واسلموا لبلاغته طوعاً أو كرهاً، من آمن منهم ومن لم يؤمن؛ لما أودعه الله تعالى من أسرار كلامه، وعجائب جلاله وكماله، وكتب فيه الخلود لأعظم الرسالات بخلوده، فكان بحق كتاب العربية الأعظم، ومثالها الأقوم، والمعجزة اللغوية الخالدة، التي أظهرها على يد صفوة أنبيائه ورسله، النبي الأمي صلى الله عليه وسلم لتكون حجتها أقهر، وبرهانها أبهى وأبهر، ففتح الله تعالى به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وكان نقطة التحول في حياة العرب والمسلمين، في معتقدهم وتفكيرهم ومنهج حياتهم، ومصدر عطائهم الثقافي والحضاري والفكري والروحي والأدبي.

ولما كانت لغة القرآن الكريم هي مكمن الإعجاز ومظهره، وان أمره قائم في أقصر سوره، عكف علماء الأمة الأفذاذ عليه بالبحث والاستقصاء، والتوضيح والتفسير والاستدلال والاستنتاج، فوقفوا عند ألفاظه ودلالاتها، ليكشفوا عن دقة اختيارها وحسن تأليفها، وعند جمله ووجوه تركيبها، وقوة سبكها وانسجامها، ونظروا في بديع نظمه وأسلوبه، وأثر ذلك كله في النفوس، وأسره للقلوب، فعلموا أنّ أمر الإعجاز قائم في بلاغة القرآن التي أعجزت بلاغات البشر، وحملتهم على الامتثال لأحكامه، والعمل بمقتضى أوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده، وأن الإعجاز البلاغي هو أعظم وجوه الإعجاز فيه وأعمها في نصوصه، وأكثرها ملاءمة لطبيعة المعجزة الخالدة.

وانطلاقاً من الرغبة في الإفادة من هذا الإرث المبثوث في كتب الإعجاز والتفسير وتوظيفه في تحليل النص القرآني تحليلاً بلاغياً للوقوف على الأسرار البلاغية وبيان قيمتها البيانية في خدمة الأهداف والمقاصد الدينية، آثرت القصة القرآنية هي ميدان البحث، وذلك لما تحتله من مكانة ملحوظة من القرآن الكريم، وجديرة بالعناية والاهتمام، فهي من أهم الأساليب الدعوية لحمل الرسالة الخالدة إلى الإنسانية، كونها تحمل خلاصة التجارب الإنسانية الواقعية القريبة من النفس البشرية، وتعرضها بالطرق الفنية التي تستمد قدرتها على التأثير من الفنون البلاغية، فكانت الفضاء الرحب والأرض الخصبة للوقوف على أسرار النظم والفنون البلاغية، لما تشكله القصة من صور متكاملة من النظم، تكشف بيسر وسهولة عن علوّ البلاغة القرآنية، واقتدارها على تصريف الأحداث والمشاهد وامتلاك زمامها وتحريكها حسب مقتضيات الأحوال والمقامات، ونقل التجارب الإنسانية وما يتخللها من مواقف نفسية وشعورية تجعل القارئ

* الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها،الجامعة الوطنية للغات الحديثة، سيكتر ايج نائن اسلام آباد، باكستان

يعيشها بإحساسه ووجدانه ويتأثر بها وينتفع بما فيها من عبر وعظات. وجعلت موضوع بحثي (الإعجاز البلاغي في قصة صالح عليه السلام).

وردت قصة نبي الله صالح عليه السلام في سورتي الشعراء و النمل من سور الطواسين، أما ما ورد منها في سورة الشعراء فقد جاء مناسباً لجو السورة العام في التركيز على دعوة قومه (ثمود) إلى تقوى الله تعالى، وإنكار ما هم عليه من المعاصي التي أدت بهم إلى الكفر والجحود، وبيان موقفهم من دعوته، والمصير المترتب على تكذيبهم، ثم الإشارة إلى ما فيها من العبرة لتسلية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وتحذير المشركين ببيان عاقبة من سبقهم من الغابرين. وإذاكان قوم هود قد غلبت عليهم الملذات المعنوية، بالتطاول في البنيان واتخاذ المصانع على جهة التعالي والإفساد، والتفرد بالقهر، والتجبر على العباد، فإن قوم صالح قد غلبت عليهم الشهوات الحسية، بحب الخلود في نعيم الدنيا، ما جعلهم يخلدون إلى الأرض، ولا يلتفتون إلى رسالة السماء لشكر النعم، وابتغاء الخلود في النعيم المقيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)﴾[(1)].

أما ما ورد منها في سورة النمل فيضيف مشهداً جديداً من مشاهد قصة صالح عليه السلام مع ثمود تفصيلاً لما أُجمل في سورة الشعراء من موقف قومه إزاء دعوته، وانقسامهم على فريقين، فريق مؤمن وهم القلة ، وفريق كافر بدعوته، مكابر عن تصديق رسالته ، ثم يصور ما دبره هؤلاء من مكيدة لقتل صالح عليه السلام وما قدره الله تعالى عليهم من العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53)﴾[(2)].

وردت القصة في سورة الشعراء على سبيل الاستئناف لتعلن المفاجأة بتكذيب الدعوة أولاً، ثم تعود لحكاية أحداث القصة وما دار فيها من حوار، بدعوة صالح عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى، وتعليل صدقه بتذكير قومه بأمانته، وانتفاء طلب الأجر احتساباً له عند الله تعالى، والمشهد الذي اختصت به القصة في هذه السورة يبدأ من إنكاره على قومه حبهم الخلود في الدنيا، متنعمين بما أسدى عليهم الله تعالى من فضله، آمنين في بيوتهم، ومجاوزة الحد في التنعم إلى الإسراف، مع جحود فضل الله تعالى عليهم، وكفرهم به، ابتداءً بقوله تعالى على لسان صالح: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾[(3)] فلما كانت حالهم من الإعراض عن عبادة الله تعالى، والانغماس بالملذات الحسية، والاطمئنان بالبيوت المحصنة سبباً لتكذيبهم صالح عليه السلام، أنزلهم منزلة من يظن الخلود ودوام النعمة، فخاطبهم بأسلوب (الاستفهام الإنكاري

© rasailojaraid.com

التوبيخي)، والمراد إنكار ظنهم أصلاً، وإنما سلط الإنكار على فعل الترك إشارة إلى أن تركهم على تلك النعم لا يكون أصلاً، وتذكيراً لهم بحتمية الموت ومفارقة الدنيا وملذاتها، فكان إنكار الترك الذي يستلزم إنكار الظن أبلغ لما فيه من الاستدلال بواقع الحال على حتمية الانطواء والزوال، ومفارقة الحياة الدنيا ، وفيه تعليل لما تقدمه من الإنكار ، وحث على العمل لاستيفاء تلك النعم، بان يشكروا الله تعالى عليها[4]. وفي الإبهام بالاسم الموصول والإشارة إليه مع التنبيه في التعبير بـ (فيما ههنا) تفخيم لتلك النعم وإلفات إلى عظمتها التي يجب على المتنعم بها أن يؤدي شكرها. و(آمنين) حال مبينة لبعض ما أجمله الإبهام، وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدل عليها أسم الإشارة؛ لأنها لا يشار إليها وهي نعمة الأمن التي هي من أعظم النعم ولا يتذوق طعم النعم الأخرى إلا بها، فضلاً عما في التعبير من الإيجاز البديع بالقصر[5].

ولما أيقظ نفوسهم من سنة الغفلة، وألفتهم إلى عظيم ما هم عليه من النعمة شرع في بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[6]، على سبيل (التفسير بعد الإبهام)، ليكون ذلك أوقع في نفوسهم، وأنفع في تذكيرهم. وعطف (نخل) على (جنات) من (عطف الخاص على العام) للتنبيه على ما فيه من فضل خصوصية يستحق عليها الإفراد، وهي عظيم النعمة للمتنعم به[7]. وأفاد الإفراد أيضاً التنصيص على وصفه بـ (هضيم) أي: المتكسر من لينه ورطوبته، حتى تنقص بمس الأيدي، أو بركوب بعضه على بعض، على أن (فعيل) بمعنى (مفعول)، فيكون التعبير جارياً على سبيل (الاستعارة التصريحية)، وذلك من قولهم: امرأة هضيم الكشح، للدلالة على جودته[8]، حيث شبه الطلع للطافته ورخصه، وتنقصه التراكم بعضه على بعض، بكشح المرأة الدقيق الضامر، والجامع بينهما هو الدقة والضمور الناتج عن اللطافة واللين. وقيل: إن هضيم بمعنى المكتنز الذي قد ضمن بدخول بعضه في بعض، على أن (فعيل) بمعنى (فاعل)، وبذلك تكون (الاستعارة مكنيةً) لتصوير تداخله ببعضه لشدة رطوبته وإيناعه، فكأن بعضه قد هضم بعضاً لفرط تكاثفه، وشدة تشابكه[9].

وفي العدول عن الاكتفاء بالاسم إلى الفعل المضارع في ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[10]، دون مراعاة نسق العطف بان يقال: وبيوت، استحضار لحالتهم في نحتهم بيوتاً من الجبال[11]، لما في تلك الحال من إظهار القوة والعظمة فيما يتخذ رمزاً لذلك، وللدلالة على إرادة الخلود في الحذاقة بصنعها في تلك الأجرام العظيمة من الجبال؛ لأن إبداء مظاهر العظمة والنشاط والقوة في العمران أظهر من إرادته في الزروع والجنان، وأن تجاوز الحد فيها عن الإيواء والعيش غير مسوغ بمصلحة مشروعة، لذلك عدل إلى الفعل المضارع لتصوير حالهم في ذلك الفعل غير المسوغ، فبين حالهم وعلقها بذلك الفعل ووصفها بـ(فارهين) أي: حاذقين، مختبرين لمواضع نحتها، والفراهة هي الكيس والنشاط[12].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[13] تفريع على إنكار ما هم عليه من النعيم، الذي تسبب عنه تكرار الأمر بالتقوى، وبطاعة نصحه لهم بعبادة الله تعالى، وفيه أيضاً تهديد وتخويف من زوال تلك النعم الحسية و النفسية، لما في البنية الاستفهامية الخارجة للإنكار والتوبيخ من إثارة استدعاء النقيض للأمن والنعمة وهو الخوف من زوالهما[14]. وجملة: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[15] تأكيد بالعطف على مضمون الأمر بطاعته؛ لأن الأمر بشيء يقتضي النفي عن ضده، فكرر النفي زيادةً في التأكيد على طاعته، وفي الإلحاح عليهم وإبداء إخلاصه لهم بكل ما يستدعيه التضاد الذي حققه (طباق السلب) بين (وأطيعون) و(ولا تطيعوا) من المعاني والدلالات المترتبة على المتضادين. وفي التعبير بـ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ مجاز في النسبة الإيقاعية؛ لأن الطاعة لا تقع على أمر المسرفين، وإنما عليهم، والتقدير: ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم، وذلك على سبيل (المجاز

العقلي) لعلاقة السببية، مبالغة في النهي، والحث على الإقلاع عن الطاعة العمياء للمسرفين في ضلالهم وفسادهم وإفسادهم، والنسبة الإيقاعية هي إيقاع الفعل المتعدي على غير ما حقه أن يقع عليه لعلاقة بينهما مع قرينة[16]، ويجوز ان تكون الإطاعة مستعارة للامتثال، (استعارةً تصريحيةً تبعيةً)، لما بينهما من الشبه في الإفضاء إلى فعل ما أمروا به، أو (مجازاً مرسلاً) عنه لعلاقة اللزومية[17] .

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[18] استئناف لبيان صفتهم التي دأبوا عليها، واستحقوا بها نعتهم بالمسرفين، والتعريف بالاسم الموصول للتفظيع عليهم والتسجيل بصفة الإفساد في الأرض، مع دلالة المضارع على الدأب والاستمرار على تلك الصفة الشنيعة، وعطف جملة **لَا يُصْلِحُونَ** عليها تأكيد لوقوع الشيء بنفي ضده، ولإفادة أن فسادهم لا يشوبه صلاح، فالتعبير جارٍ على سبيل (الاحتراس) من توقع حصول صلاحٍ منهم[19]، وفي العطف نكتة بلاغية أخرى، وهي أن الأسلوب القرآني عدل فيه عن الفصل الذي يقتضيه كمال الاتصال بين الجملتين إلى الوصل ليضيف معنى آخر، وهو تعديد جرائمهم ومساوئ أخلاقهم، لما تفيده (الواو) من المغايرة[20]، فضلاً عما حققه التعبير بتلك الجملة من المحسن البديعي بـ(الطباق المعنوي) بين (يفسدون) و(لا يصلحون)، مع مراعاة حسن التذييل، وتناسق الفاصلة القرآنية لتحقيق الانسجام الصوتي مع عموم النص القرآني المعجز.

فذكر الله سبحانه وتعالى جواب قوم صالح عليه السلام بعدما أنكر عليهم ظنهم الخلود في نعيم الدنيا، وبعد تكرار الأمر بتقوى الله تعالى وطاعته في دعوته وتأكيد ذلك بالنهي عن طاعة أمر المسرفين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[21]، حكاية لجواب قومه على سبيل الاستئناف البياني، لأن النفس تتشوف لمعرفة جوابهم بعد الإنكار عليهم الخلود في الدنيا، والأمر بتقوى الله تعالى وطاعة نبيه، فجاء الجواب على عكس ما يتوجب عليهم، معبراً عن مدى تماديهم في غيهم، واستخفافهم بدعوة نبيهم، **إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** الذين سحروا سحراً متمكناً أذهب عقولهم، أي: أنت مسحور لا كما تزعم أنك رسول من الله، وأن ما يصدر عنك ليس وحياً بل هو من تأثير السحر عليك حتى بلغ بك حد الجنون فيما تقول، وأكدوا ذلك بالتضعيف مبالغة في زيادة المعنى، وبأسلوب القصر بـ(إنما) خلافاً لمقتضى الظاهر بإنزاله منزلة العالم بالشيء غير المنكر له ، على سبيل (القصر الإضافي) بقصر الموصوف على الصفة، وهو من قصر القلب[22]. أو أنهم أرادوا بـ (من المسحرين) الذين يعللون بالطعام والشراب، فهو مأخوذ من (السَّحْر) وهي الرئة، أي: إنك بشر مثلنا فلا يصح أن تكون رسولاً إلينا[23].

ولما تضمن قوله تعالى على لسانهم: **إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** تكذيبهم إياه لبشريته جاءت جملة: **مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** على سبيل الفصل لتأكيد مضمون الجملة السابقة، لزعمهم أن الرسول لا يكون إلا مخلوقاً خارقاً للعادة كأن يكون ملكاً، فوقعت الجملة موقع البدل من الأولى لإرادة التأكيد لا التعديد، وهذا هو سر الفصل بين الجملتين، مع ما في الآية من الكناية التعريضية بصالح [24]. والتعبير بأسلوب القصر في الجملة المؤكدة **مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** بالنفي بالاستثناء خروج على مقتضى الظاهر؛ لأن القصر بهذا الأسلوب يستعمله فيما ينكره المخاطب، ويحتاج إلى تأكيد، فأنزلوا صالحاً منزلة الجاهل أو المنكر لبشريته. وفي هذا التلون في التعبير بأساليب القصر، واستعمال كلٍ منهما على خلاف مقتضى الظاهر تتجلى بلاغة النظم القرآني المعجز في الكشف عن زيغ إدعاءات القوم، وخورهم وإفلاسهم عن المحاججة بالدليل

© rasaeljarid.com

المقنع لتكذيبهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، فالتعبير بـ (إنما) فيما يحتمل الشك ويحتاج إلى تأكيد، وبـ (ما) و(إلا) فيما هو مقطوع به، يمثل انعكاساً لموقفهم المنهزم أمام صدق الدعوة وإعمالها في نفوسهم، وهم يحاولون التظاهر بموقف المتيقن خلافاً لما هو في قرارة نفوسهم. ومما يؤكد هذا الموقف المتظاهر استبعادهم تحقق طلبهم الذي ساقوه على سبيل التفريع على ما تقدم من إنكار كون صالح رسولاً من الله تعالى، كما في قوله تعالى: إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، فعبروا عن اشتراط صدقه بالأداة (إنْ) الغالب في استعمالها ضعف تحقق الشرط بعدها واستبعاد وروده، وزادوا ذلك الاستبعاد بأن يكون من الراسخين في الصدق، العريقين فيه[25].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[26] استئناف لبيان جواب صالح عليه السلام على طريقة المحاورات، والتعبير القرآني يؤذن بسرعة المبادرة والمباغتة في الجواب، لما يطويه من الكلام المحذوف مناسبة لما يقتضيه موقف الإسراع بإظهار المعجزة على تقدير: (قال آتي بها، قالوا: ما هي؟ قال: هذه ناقة الله)[27] ، والإشارة إليها بأداة القرب (هذه) للإيذان بسرعة إخراجها وسهولته، وتمييزاً لاستحضارها في الذهن، وتقريراً لها وتخصيصاً، لتحقيق المعجزة بها[28] .

ولما تضمن التعبير بـ **هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ** ما تقديره: فخذوا شربكم واتركوا لها شربها، عطف عليه قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[29]، للإسراع بتحذيرهم من مغبة قتلها، فيحل عليهم عذاب يوم عظيم مباغت كما تؤذن بذلك فاء التعقيب[30]. ووصف اليوم بالعظيم (مجاز مرسل) لعلاقة زمانية[31] ، إذ المراد وصف العذاب، فـ(عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم أبلغ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد)[32]. أخبر به تعالى في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[33]، والتعقيب والإجمال بذكر العذاب دون الاكتفاء بالوصف إشارة إلى عظم العذاب، وإيذان بالسرعة والتعجيل في الأخذ[34] .

وفي التعبير بـ **فَيَأْخُذَكُمْ** عن حلول العذاب بهم (استعارة مكنية) تشخيصية، حيث شبه العذاب بالإنسان الذي يمتلك الإرادة والقصد في التصرف، فحذفه وأبقى إحدى لوازمه وهي الإرادة، لتصوير شدة أخذ العذاب لهم وتمكنه منهم وإيلامهم، وكأنه ناتج عن حنق وغيظ عليهم. وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[35]، استئناف بياني لترديد الإشارة إلى مواطن العبر في قصص سورة الشعراء، وفيه دليل على صدق الأنبياء والمرسلين في دعوتهم إلى عبادة الله فإنه تعالى (عزيز) لا يخرج عن قبضته وإرادته شيء، و(رحيم) لم يهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً، وفي تكرير هذا الختام أعظم تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأعظم عبرة للمشركين للارتداع عن تكذيب النبي الأمين. وفي نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المقام إيماء إلى انه لو آمن أكثرهم لما أخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم[36] .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[37]، فاستهلاك المشهد بالتأكيد باللام الموطئة للقسم، و(قد) التحقيقية للاهتمام بما يتضمنه الخبر من محل العبرة، وقد يكون هذا التأكيد مبنياً على خلاف مقتضى الظاهر بإنزال المخاطبين منزلة من يظن أو يتردد في تصديق ما تضمنه الخبر من تكذيب ثمود أخاهم صالحاً، واستخفافهم بوعيد ربهم على لسانه، وحلول العذاب بهم لأجل ذلك؛ لأن حالهم في عدم العظة بما جرى للمماثلين لحالهم من الأمور العجيبة التي تجعل المخاطبين كمن ينكر وقوع مثله بهم[38]، وذلك لما في تلك القصة من

الأمور الداعية للتعجيب من حالهم، وقدم الجار والمجرور على المفعول في **إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ** لأن ما حل بالقوم أهم ذكراً في هذا المقام من محل التسلية التي يحققها ذكر المفعول به، ومن دواعي التعجيب من حالهم التعبير **أَخَاهُمْ صَالِحًا** إذ جمع إلى حسن الفعل، حسن الاسم وقرب النسب، ثم زاد في التعجيب بما أشارت إليه فاء التعقيب و(إذا) الفجائية، فقال تعالى : **فَإِذَا هُمْ** معجباً من حالهم بمبادرتهم إلى الافتراق بما هو مدعاة للاجتماع، فالإتيان بحرف المفاجأة (كناية) عن كون انقسامهم غير مرضي لعدم توقعه وارتقابه منهم، ولذلك لم يتعرض التعبير القرآني في هذا السياق لإنكار كون أكثرهم كافرين —كما تقدم في سورة الشعراء – للإشارة إلى أن مجرد بقاء الكفر فيهم سواء قل أو كثر كافٍ في قبح صنيعهم، والتعجيب من حالهم في بقاء فريق منهم على ملة الكفر[39] .

ولما كان تخاصم الفريقين في شأن صالح عليه السلام ودعوته جاء جوابه على سبيل الاستئناف البياني رداً على ما تضمنه تخاصمهم من محاولتهم إفحامه بطلب نزول العذاب، ولذلك جاء جوابه مفصولاً على طريقة المحاورات، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[40] حكاية لجوابه عما تضمنه تخاصمهم[41] . وهذا الاستئناف ينبئ عن فجوة في أحداث القصة ندرك من خلالها أن فريق المكذبين قد استعجلوا عذاب الله الذي أنذرهم به صالح، بدلاً من أن يطلبوا هدى الله تعالى ورحمته بهم – شأنهم في ذلك شأن مشركي قريش مع الرسول الكريم – فاستغنى السياق القرآني عن ذكر تلك الفجوة اكتفاءً بمضمون جملة الإنكار عليهم باستعجالهم العذاب، فضلاً عما يحققه من الإيجاز والتركيز على ذكر ما يخدم غرض القصة وهدفها[42]؛ لذلك أقتصر السياق على ذكر مراجعة صالح عليه السلام قومه في شأن غرورهم بظنهم أن تأخر العذاب أمارة على كذب ما توعدهم به كما حكي عنهم في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[43]؛ لأن الغرض في هذا السياق هو موعظة قريش في استعجالهم العذاب كما حكاه تعالى في: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[44]، وضرب العبرة لهم بحال ثمود المساوي لحالهم، ليعلموا أن عاقبة ذلك مماثلة لعاقبة ثمود لتماثل الحالين، وبذلك يحقق القصص القرآني هدفه الرئيس فيما يعرضه من الحلقات والمشاهد[45] .

واستهلال الجواب بأسلوب النداء في (يا قوم) للاستعطاف والتحنّن بتذكيرهم بأنه حريص على نصحهم وهدايتهم، ولتمكين إنكاره عليهم استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، أي: يا أبناء قرابتي ومن فيهم كفاية للقيام بالمصالح[46]؛ لإثارة ما يربطهم به من أواصر القرابة، وإشعارهم بصدق اللهفة إلى أتباعه والأخذ بنصيحته، فضلاً عن نفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول[47]، وبعد تهيئة النفوس واستعطاف القلوب يأتي في قوله: **اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ** على سبيل (الاستفهام المجازي للإنكار والتوبيخ) على أخذهم بجانب العذاب دون الرحمة، وظاهر الاستفهام أنه عن علة الاستعجال، وهو في الحقيقة عن المعلول كناية عن انتفاء ما حقه أن يكون سبباً لاستعجالهم العذاب، فالإنكار متوجه إلى الاستعجال لا لعلته، و(الباء) في (بالسيئة) لتأكيد لصوقهم بالسيئة، والمراد بها العذاب قبل الرحمة، وهو ما يستوجب الإنكار، والمراد إنكار جعلهم تأخير العذاب أمارة على كذب الوعيد به، وأن الأولى بهم أن يجعلوا امتداد السلامة أمارة على إمهال الله تعالى لهم فيتقوا حلول العذاب، أي: لم تبقون على التكذيب منتظرين حلول العذاب، وكان الأجدر بكم أن تبادروا إلى التصديق منتظرين عدم حلول العذاب بالمرة[48] .

© rasaeljaraid.com

وقد يراد بـ (السيئة) الحالة السيئة في المعاملة وهي التكذيب، وبـ (الحسنة) ضد ذلك، فيكون الإنكار متوجهاً إلى مبادرتهم بأخذ طرف التكذيب إذ أعرضوا عن التدبر في دلائل صدقه، أي: إن كنتم مترددين في أمري فإن افتراض الصدق وانتظار العاقبة المترتبة عليه أولى من افتراضكم الكذب، وهذا من أساليب الحجاج الرفيعة في الحوار القصصي القرآني، لإنزال الخصم إلى محل النظر بدلاً عن الإعراض، ولذلك جمع بين المتضادين بالمحسن البديعي في (الطباق) بين (السيئة) و(الحسنة)، للتبصر بحقيقة الأمرين. وفي كلا الاحتمالين يكون الجواب جارياً على طريقة (الأسلوب الحكيم) بجعل يقينهم بكذبه محمولاً على ترددهم بين صدقه وكذبه[49]. وفي الكلام أيضاً تعريض بغبائهم وتعاميهم عن تحري الصواب، والتماس المصالح مع اتضاح الأمر وجلائه، ما أضطر صالحاً ﵇ إلى النزول معهم إلى ما هو من بديهيات الأمور، وإشعاراً لهم بأنهم لم يعملوا عقولهم في هذا الاستعجال، وأن الحكمة تقتضي الإقلاع عن المعصية بإعلان التوبة النصوح، لا التردد وتقديم افتراض عدم إنزال العذاب على افتراض استحصال الرحمة، ثم أبدى لهم منتهى الحرص في محاولة أخيرة لانتشالهم من العذاب في قوله تعالى على لسانه: **لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ** ، حضاً لهم على درء السيئة بالتوبة والاستغفار، وأناط ذلك بأسلوب الترجي وعدم الجزم تخويفاً لهم وحثاً على الإسراع بالمبادرة، مع ما في التحضيض بـ (لولا) من استمرار التنبيه على خطئهم والتأنيب على استعجال العقوبة، والتجهيل لهم على هذا الاعتقاد[50].

والمفاجأة الكبرى من قوم صالح عليه السلام تأتي عقب هذا الاستعطاف والملاينة، ومحاولة بث الأمل بقبول التوبة قبل حلول ما استعجلوا به من العذاب من صالح عليه السلام، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر والعناد، فضلاً عن التشاؤم به وبالمؤمنين من قومه، وذلك في حكاية قولهم: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[51]، أي: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكارة والمصائب[52]. وإدغام تاء الافتعال في (اطيرنا) يعبر عن شدة تشاؤمهم، أما في سياق سورة (يس) فقد ورد الفعل على الأصل في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[53]، وذلك لأن تطير ثمود أشد من تطير أصحاب القرية الذين هددوا المرسلين بالرجم والعذاب الأليم؛ لأن ثمود قد أقسموا وتعاهدوا على قتل صالح عليه السلام وأهله، ومعنى ذلك أن التطير عندهم قد بلغ درجة أكبر مما في سورة يس، فجاء السياق بما فيه زيادة مبالغة[54]. فالتعبير القرآني يعنى ببلاغة المفردة في دقة اختيارها، وإيفاء دلالتها، عنايته ببلاغة الجملة، حتى تأتي اللفظة ملقيةً بظلالها على النص بما يزيده روعة وجلالاً، وبما يجعلها شاهداً على الإعجاز البلاغي، لأنها تتناول سائر صور المعنى وخصائصه، ولا تقف عند العموميات، وتمتاز عن سائر مرادفاتها بتطابق أتم من المعنى المراد، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يغني غناءها .

ولما سمع منهم صالح عليه السلام ما سمع رد عليهم بجنس لفظهم: **قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** ، على سبيل (الاستعارة التصريحية) مشاكلة لقولهم، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم؛ لأنهم نسبوا الخير والشر إلى الطائر فأستعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو من عمل العبد الذي هو سبب الرحمة والنقمة أو أنه يريد: إن عملكم مكتوب عند الله فمنه ما نزل بكم عقوبة لكم وفتنة، **تُفْتَنُونَ** أي: تختبرون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة[55]. وتقديم المسند إليه الاسمي (أنتم) على الخبر الفعلي لإفادة الحصر وتقوية الحكم بانتفاء الشؤم بسببه وبسبب من آمن معه، والتعبير عن افتتانهم بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار في الافتتان والاختبار. واللطيفة البلاغية الأخرى في النظم المعجز تتجلى بـ (الالتفات الضمائري) من الغائب إلى المخاطب، إذ عدل عن: يفتنون إلى تفتنون، ترجيحاً لجانب الخطاب على الغيبة؛ لأنه أدلّ على المعنى المراد، وأشد وقعاً في النفوس[56] .

© rasaaljaraid.com

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[57] انتقال من مقام الجدال بالحوار إلى مقام الإخبار عن حال الكافرين وموقفهم إزاء نبيهم، ولذلك جاء الكلام على سبيل الفصل. والرهط: الجماعة من الناس نحو العشرة، يرجعون إلى أب واحد، وإنما جاز إضافة (تسعة) إليه؛ لأنه — وإن كان جماعة- لفظه مفرد[58]، والتعبير به يفهم معنى العظمة والشدة والاجتماع[59]. وقيل: إن معناه تسعة رجال، مقابلة للآيات التسع التي أظهرها الله تعالى على يد موسى ט [60]، فأخبر تعالى بأنه كان في (الحجر) مدينة صالح عليه السلام تسعة أنفس يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم بالكفر والمعصية، وإنما خصهم من دون الكافرين في عموم الأرض؛ لأنهم سعوا جميعاً في عقر الناقة، والتآمر على قتل صالح عليه السلام [61] .

والنكتة البلاغية في هذه الآية تكمن في بلاغة العطف بـ (الواو) في قوله تعالى: **وَلَا يُصْلِحُونَ** ، مع إمكان الفصل على أنّ الجملة بعدها تأكيد لما قبلها لما بين المعنيين من كمال الاتصال، فأفاد الوصل معنى إضافياً وهو تمخضهم للإفساد البحت الذي لا يشوبه صلاح، فهم ليسوا كباقي المفسدين الذين قد يندر منهم بعض الصلاح، وأنهم كانوا **يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ** فلم يقتصر إفسادهم على المدينة، زيادةً في التشنيع عليهم[62] . وبذلك قطع العطف كل رجاء في إصلاح أمرهم وتحسين حالهم، مع دلالة المضارع على استمرارهم وإصرارهم على الفساد والإفساد، فجاءت جملة ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ على سبيل (الاحتراس)، أو ما يسمى بـ (التمام أو التميم)[63] .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[64]، استئناف لبيان موقف هؤلاء الرهط من صالح ودعوته، أي: تحالفوا بالله أيها القوم، وتعاهدوا على قتل صالح عليه السلام وأهله، بالإغارة عليهم ليلاً وقتلهم غدراً، ثم نقول لمن يطالب بدمه، ما شهدنا هلاك أهله، او مكان هلاكهم دفعاً لمشاهدة مهلك صالح أو مباشرة قتله بطريق الأولى، ولما كانت الفجيعة من وليه بهلاكه عليه السلام أكثر من الفجيعة بهلاك أهله وأعظم، كان في السياق بالإسناد إلى (الولي) أتم إرشاداً إلى أن التقدير: ولا مهلكه على سبيل الاكتفاء[65] . والعطف بـ (ثم) التي تفيد التراخي، يكشف عن التمهل في الإجابة عن السؤال عن قتله إن سئلوا، دون التسرع بالقول دفعاً للشبهة، وينم عن عدم مبالاتهم ومدى استخفافهم بصالح عليه السلام وتجرئهم على ارتكاب مثل هذا الفعل الشنيع وإعلان الحرب على الله تعالى بقتل نبيه، وزادوا في دفع الشبهة بالتأكيد في **إِنَّا لَصَادِقُونَ** بـ (إن) و(اللام) واسمية الجملة، مبالغة في الإيهام والتلبيس.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[66]، مخبراً عن عظيم احتيالهم وتدبير فتكهم في الخفاء فسماه مكراً، وأكد ذلك بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في جنس المكر، مع ما يفيده التنكير من تعظيم ما بيّتوه من المكر وتهويله. وفي التعبير بـ (ومكرنا مكراً) مجاز (مرسل علاقته السببية)، إذ عبر — سبحانه — عن مبادرته بإهلاكهم قبل أن يتمكنوا من تبييت صالح وأهله، وتأخير استئصالهم إلى الوقت الذي تآمروا فيه على القتل، بفعل الماكر في تأجيل فعله إلى وقت الحاجة، مع عدم إشعار من يُفعل به، والتقدير: مكروا مكراً خفياً محكم التدبير، ومكرنا مكراً محكم التوقيت، ونكّر مكره جل وعلا تعظيماً له واتقاناً في توقيته ومفاجأته لهم، **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** أن يد الله تعالى تعمل في الخفاء، وفي هذه الجملة الحالية تأكيد لاستعارة المكر لتقدير الاستئصال وتجريد لها[67] .

ولما هوّل ما أعده الله تعالى لهم من المكر، زاد في التهويل بالأمر (فانظر) وعظمه بالإشارة بأداة الاستفهام إلى أنه أهل لأن يسأل عنه فقال: **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ** ، فإن ذلك سنتنا في أمثالهم، ثم يأتي الجواب عن هذا الاستفهام على سبيل الاستئناف: **أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ** لتفسير ما تقدم من الإبهام، زيادة في التهويل والتعظيم، فضلاً عن تأكيد الخبر للتنصيص على تحقيق مضمونه على جهة التمكن والإحاطة، فانه تدمير إلهي خارج عن التصور، وعطف (قومهم)

© rasaeljarain.com

عليهم لموافقة الجزاء للمجزي عليه، لأنهم مكروا بصالح وأهله فدمرهم الله تعالى وقومهم (أجمعين) للتأكيد و(الاحتراس) من أن يفلت منهم مخبر، ولا فرق في ذلك بين مقبل ومدبر، وأما مكرهم فكان على اجتهادهم في إتقانه، وإحكام شأنه قد جوّزوا فيه سلامة ولي له يفترون عليه انتفاء مشاهدتهم مهلكه، فشتان بين المكرين، وهيهات لما بين الأمرين[68] .

وفي هذا الإهلاك السريع، والأخذ المريع، واللمحة الخاطفة وهم يدبرون ويمكرون، ما يشكل عنصر المفاجأة غير المتوقعة بالمباغتة الحاسمة القاضية، وهي مفاجأة مقصودة في هذا السياق الذي بُني على المفاجآت في مطلع المشهد حين دعاهم صالح إلى عبادة الله تعالى: **اعْبُدُوا اللَّهَ** ، ومفاجأته بما لم يتوقع، فجاء العقاب من جنس العمل جزاءً وفاقا[69]. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[70]، ففي الإشارة بأداة البعد (تلك) إبعاد لهم بالغضب على أهلها ، واستحضاراً لمعلوم غير مشاهد ؛ لأن تحققه يقوم مقام حضوره، للاعتبار بما لحقهم من الهول والرعب، والباء في (بما ظلموا) سببية، أي: إن ذلك كان بسبب ظلمهم، وهو الشرك والتكذيب، لأنه ظلم من جانب الله واعتداء على حقه بالوحدانية، وكذلك ظلم رسوله بتكذيبه وهو الصادق الأمين، فلما خص عملهم بوصف الظلم من بين أحوال عدة يشتمل عليها كفرهم كالفساد مثلاً، كان في ذلك إشارة إلى أن للظلم أثراً في خراب بيوتهم وبلادهم، وإخلائها من أهلها، وهذا من أسلوب (أخذ كل ما يحتمل من معاني الكلام) في القرآن الكريم، وتنصيص على ذم الظلم وتقبيحه[71]، ولما كان فيما تقدم من القصة أعظم العبر، وإتحاف للعقلاء من البشر، أتبعه تعالى بقوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ** على سبيل الاستئناف للإشارة والإلفات إلى ما فيه من الآية العظيمة، فالتأكيد بـ (إن) وتقديم الجار والمجرور، وتنكير (آية) للتعظيم والاهتمام وفي كون ذلك آية (لقوم يعلمون) ما فيها فيتعظون بها، تعريض بالمشركين لبلادة عقولهم وقصورها عن الاتعاظ مع بقاء آثارها تلوح بالموعظة لكل من له عقل وشيء من الإدارك[72]، كما أن فيه إيثار صفة العلم في هذا المقام مناسبة لجو سورة النمل في التركيز على تلك الصفة في قصصها وتعقيبها على الأحداث والمشاهد[73] .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[74]، عطف لاستدراك بيان مصير صالح u والمؤمنين بعد ذلك الإهلاك العظيم والمفاجئ، وأن انجاءهم كان بجُنة الإيمان بالله رب العالمين. وإيثار التعبير عن الإنجاء بصيغة (أنجينا) دون (نجّينا) كما ورد في سياق سورة (فصلت) في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[75]، لأن مقام سورة فصلت مقام إيجاز لما عرضته سورة النمل من تفصيل ما دار بين صالح عليه السلام وقومه من الحوار والمجادلة والعناد، وتبييت المكائد وما في ذلك كله من الشدة، كما برز فيها عنصر المفاجأة في الأحداث، واحتدام المواقف ، فأستدعى ذلك الإسراع في إنجائهم وتدمير أهل الباطل؛ لأن الوقت لم يعد يحتمل الإرجاء والإبطاء، فآثر التعبير استعمال (أنجى) مناسبة للإسراع في التخلص من شدة الكرب، أما صيغة (نجّى) فإنها تدل على التلبث والتمهل في التنجية، وذلك أنسب لمقام الإيجاز في سورة فصلت[76] .

وفي تقديم الجمل وتأخيرها في القرآن الكريم –كما للألفاظ – مقاصد بيانية تخدم الأهداف والأغراض من عرض القصص القرآني، ففي تأخير الإخبار عن إنجاء صالح عليه السلام والمؤمنين عن جملة: **وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا** ، طمأنة لقلوب المؤمنين بأن الله تعالى منجّيهم مما توعد به المشركين، مهما بلغ ذلك الوعيد، كما نجى صالحاً والذين آمنوا معه من العذاب العظيم الذي حل بثمود، وما كان ذلك الإنجاء إلا لترسيخ الإيمان في قلوبهم، ففي إضافة فعل الكون في التعبير دلالة على أنهم متمكنون من التقوى برسوخ إيمانهم[77]، فضلاً عما فيه من التكريم والمدح لصدق إيمانهم الذي أيّدوه بالعمل الصالح وهو ما حال بينهم وبين ما لحق بقومهم من العذاب العظيم.

© rasaaljarad.com

هوامش

(1) سورة الشعراء، رقم الآيات/141 – 159 .

(2) سورة النمل، رقم الآيات/45 – 53 .

(3) سورة الشعراء، رقم الآية/146.

(4) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، انتشارات آفتاب – تهران، 122/3 .

(5) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس، د.ت: 175/19 .

(6) سورة الشعراء، رقم الآيات/ 147 – 149 .

(7) التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: 159/23.

(8) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2001م، 116/19.

(9) تفسير غريب القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1978م: ص 319 .

(10) سورة الشعراء، رقم الآية/149 .

(11) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور : 176/19 .

(12) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري : 118/19 .

(13) سورة الشعراء، رقم الآية/150 .

(14) البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، دراسة فنية، عماد عبد يحيى، أطروحة دكتوراه، مقدمة الى كلية الآداب – جامعة الموصل، بإشراف د. عبد الوهاب محمد علي العدواني، 1412هـ-1992م، ص 300 .

(15) سورة الشعراء، رقم الآية/151 .

(16) المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف – مصر، ط (3)، 1978م، ص 153 .

(17) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية، ط (1)، 1301هـ، 221/6 .

(18) سورة الشعراء، رقم الآية/152 .

(19) الكشاف، جار الله الزمخشري : 123/3 .

(20) خطاب الأنبياء في القرآن الكريم – خصائصه التركيبية وصوره البيانية، د. عبد الصمد عبد الله محمد، مكتبة الزهراء – القاهرة، ط (1)، 1418هـ-1998م، ص 248 .

(21) سورة الشعراء، رقم الآيات/152 – 154 .

(22) الكشاف، جار الله الزمخشري: 123/3 .

(23) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط (1)، 1423م، 1406 .

(24) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور : 177/19 .

(25) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة أبن تيمية – القاهرة، ط (1)، 1979م، 77/14 .

© rasaeljarald.com

(26) سورة الشعراء، رقم الآية/155 .

(27) البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط (1)، 2001م، 34/7 .

(28) في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية) أ.د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، 2002م، ص 112-113 .

(29) سورة الشعراء، رقم الآية/156 .

(30) نظم الدرر، إبراهيم بن عمر البقاعي : 78/14 .

(31) أساليب المجاز في القرآن الكريم، أحمد حمد محسن الجبوري، أطروحة دكتوراه، مقدمة الى كلية الآداب جامعة بغداد، بإشراف أ.د. أحمد مطلوب، 1410هـ - 1989م، ص 369 .

(32) الكشاف ، جار الله الزمخشري: 123/3 .

(33) سورة الشعراء، رقم الآية/158 .

(34) في ظلال القرآن، سيد قطب ، دار الشروق ، ط (1) ، 1402م، 2612/5 .

(35) سورة الشعراء، رقم الآيات/158 – 159 .

(36) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1996م، 250/4 .

(37) سورة النمل، رقم الآية/45 .

(38) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: 278/19 .

(39) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي : 78/7 .

(40) سورة النمل، رقم الآية/46 .

(41) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور : 279/19 .

(42) في ظلال القرآن ، سيد قطب : 2644/5 .

(43) سورة الأعراف، رقم الآية/77 .

(44) سورة الأنفال، رقم الآية/32 .

(45) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: 279/19 .

(46) نظم الدرر ، إبراهيم بن عمر البقاعي: 174/14 .

(47) البلاغة العربية، (المعاني والبيان والبديع)، د. أحمد مطلوب، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، ط (1)، 1400هـ-1980م، ص 156 .

(48) الكشاف ، جار الله الزمخشري: 151/3 .

(49) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور : 280/19 .

(50) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي: 79/7 .

(51) سورة النمل، رقم الآية/47.

(52) جامع البيان ، محمد بن جرير الطبري: 195/19 .

(53) سورة يس، رقم الآية/18 .

(54) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي : 44 .

© rasailojaraid.com

(55) الكشاف ، جار الله الزمخشري: 151/3 .

(56) التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور: 281/19 .

(57) سورة النمل، رقم الآية/48 .

(58) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ، ضبط وتحقيق حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ت، ص232.

(59) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، دار الفكر بيروت، 1403هـ، 362/2 ، مادة (الرّهط) .

(60) نظم الدرر ، إبراهيم بن عمر البقاعي: 176/14 .

(61) جامع البيان محمد بن جرير الطبري: 196/19 .

(62) الكشاف ، جار الله الزمخشري: 152/3 .

(63) وهو (أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت منه نقص معناه في ذاته أو في صفاته ولفظة تام)، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي، انتشارات مدين، مطبعة النهضة - قم، ط (1)، 1411هـ-1991م، 180/19 .

(64) سورة النمل، رقم الآية/49 .

(65) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط (1)، 2000م، ص 1306 .

(66) سورة النمل، رقم الآية/50 .

(67) الكشاف ، جار الله الزمخشري: 153/3 .

(68) نظم الدرر ، إبراهيم بن عمر البقاعي: 179/14 .

(69) في ظلال القرآن ، سيد قطب: 2646/5 .

(70) سورة النمل، رقم الآية/52 .

(71) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي: 82/7 .

(72) نظم الدرر ، إبراهيم بن عمر البقاعي: 180/14 .

(73) في ظلال القرآن ، سيد قطب: 2646/5 .

(74) سورة النمل، رقم الآية/53 .

(75) سورة فصلت، رقم الآية/18.

(76) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط 1 (، 2000م: 57-60.

(77) التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور: 287/19 .

© rasailojaraid.com